«ولم يعودوا»: «الذاكرة حمّالة الحروب»

منسقة المشروع غالية ضاهر

جانب من معرض صور المفقودين في الرابطة الثقافية

خضر شحادة

«... ولم يعودوا» معرض صور قيد الانشاء في سياق «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمّالة الحروب» مشروع بتوقيع «أمم للتوثيق والابحاث» يقام في الرابطة الثقافية بطرابلس – قاعة «العزم» بين ١٣ و٢٣ كانون الاول الجاري.

عندما يدخل المرء قاعة المعرض يستعيد في مخيلته مشاهد الحروب المتعاقبة في لبنان منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥ والمستمرة فصولها بأشكال مختلفة الى اليوم، حروب كان من أبرز تداعياتها ذلك الجرح الذي لم ولن يندمل قبل معرفة مصير ١٧ ألف مفقود انقطعت أخبارهم في غياهب المجهول. وكأنهم يحدثونك عن حروب لن تمحى آثارها من الذاكرة، ضحايا وجلادون كانوا وقوداً لصراعات اعتاد اللبنانيون ان تنتهي بـ «لا غالب ولا مغلوب» رغم الاثمان الباهظة التي يدفعها الناس من أرواحهم وأملاكهم ومستقبلهم.

من هي «أمم»، لماذا هذا المعرض في هذا الوقت بالذات، من أين جاءت فكرة المعرض وماذا ستحقق؟ أسئلة طرحتها «التمدن» على منسقة المعرض غالية ضاهر في الحوار التالي: «أمم للتوثيق والابحاث»، كما تقول ضاهر، «أنشئت عام ٢٠٠٤ كجمعية مدنية، وقد أخذت علماً وخبراً عام ٢٠٠٥، وهي تهتم بأمرين، الاول: تنشيط الذاكرة اللبنانية والاهتمام بتأثير الحروب المتعاقبة في لبنان من كافة النواحي الانسانية والاجتماعية، الثاني: الاهتمام بالارشيف الورقي والسمعي والبصري، والجزء الاساسي من هذا الارشيف الضخم خاص بالحرب اللبنانية. كما تنظم «أمم» معارض وتقيم ندوات وتعرض أفلاماً».

أضافت: «في اطار هذا المشروع نقيم شهرياً ورش عمل لها علاقة بالمصالحة والحقيقة... أما فكرة هذا المشروع فقد جاءت عندما كان رئيس الجمعية لقمان سليم وزوجته الالمانية مونيكا بورغ مان يعملان على فيلم عن مجزرة صبرا وشاتيلا فوجدا نقصاً في المواد التي يمكن ان تغني فكرة الفيلم، انطلاقاً من هذا الامر فكرا بتأسيس جمعية تعنى بأرشيف عن الحرب اللبنانية».

وأوضحت ضاهر «ان المركز الرئيسي للجمعية موجود في الغبيري وتحديداً في ڤيلا النائب الراحل محسن سليم والد لقمان». واشارت الى «ان معرض صور هو جزء من فكرة مشروع كبير اسمه: «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمّالة الحروب»، أطلقناه في العاشر من نيسان ٢٠٠٨، وهو يعني عدم طي ملف الحرب ونسيانها، اذ يجب على اللبنانيين الحديث عن أسباب الحرب، فهم بعدها صاروا يحكون عن المصالحة التي لم تتم فعلياً، فالاطراف اللبنانية لم تتصارح، وفي وقت ما، عادت لغة الحرب مجدداً. اما فكرة «ولم يعودوا» من ضمن المشروع فهي ان المفقودين هم جزء من الحرب او من تداعياتها وهذا الملف ما زال مفتوحاً أقله عند الاهالي. يقال ان في لبنان ١٧ الف مفقوداً، لذلك نحاول من خلال هذا المعرض الاضاءة على قضيتهم».

وأوضحت «ان المعرض أقيم في الاونيسكو (بيروت) في نيسان الماضي، وكان المفترض اقامته شهرياً في المناطق اللبنانية الاخرى، لكن الاحداث التي حصلت منذ شهر ايار أعاقت ذلك، وفي طرابلس نقيم المعرض الثاني، وسنحاول اقامته في مناطق اخرى».

وأكدت «ان المعرض يضم ٥٢٩ صورة لمفقودين من مختلف الجنسيات والطوائف فقدوا في لبنان وسوريا واسرائيل. الجنسية ليست مهمة فالامر بالنسبة لنا نابع من الناحية الانسانية. تعاوناً مع: «لجنة أهالي المخطوفين» و«لجنة دعم المعتقلين والمنفيين اللبنانيين» (سوليد) و«لجنة أهالي المعتقلين في السجون السورية» بالاضافة الى مجهود «أمم» وما قدمه الاهالي من صور ومعلومات. لدينا ١١٠٠ اسم حتى الآن وما زلنا نتلقى صور مفقودين اخرين ونقوم بتصحيح المعلومات ان كانت غير صحيحة».

وأوضحت «ان الفرصة متاحة لأهالي المفقودين كي يعرضوا حكاياتهم لوسائل الاعلام عند الافتتاح ونحن ايضاً نستمع اليهم ونسجل ما يقولون».

واكدت «ان هدف المعرض ليس نبش القبور بل توحيد المطالبة بالكشف عن مصير المفقودين في لبنان وفي سوريا وفي اسرائيل وليس الاقتصار على المطالبة بالافراج عن جزء منهم ونسيان الآخرين. ونتمنى ان يحرك المعرض قضية المفقودين ولو في عقول الناس». واوضحت «ان «أمم» ليست معنية بمتابعة قضية المفقودين مع الجهات السياسية، وهي تشارك في نشاطات اللجان ذات الصلة».

وختمت بالقول: «هناك ١٧ الف مفقود في لبنان منهم ٦٠٠ (حسب احصاء «سوليد») في السجون السورية، واسرائيل ترفض بشكل قاطع الاعتراف بالمفقودين لديها، وبذلك يكون العدد الاكبر منهم في لبنان. اما تاريخ اختفاء من احصتهم «أمم» فانه يمتد بين عامي ١٩٧٥ و٢٠٠٣».

بعض اهالي المفقودين امام صورهم

عبد اللطيف الكردي والد المفقودين خالد وسالم

والدة المفقود مصطفى الزكزوك

غادة ارناؤوط تعرض صورة ابنها محمد

الاهالي عن الابناء المفقودين... «المعتقلين»

عند وصولها الى مدخل الرابطة الثقافية، راحت تبحث بعيون حائرة عن صورة لابنها المفقود، ظنت ان الصورة التي أعطتهم اياها في المعرض الذي أقيم قبل هذه المرة في الاونيسكو ما زالت بحوزتهم ولم تكن تعلم ان مياه الشتاء او لنقل النسيان الا من قلبها قد غيبا الصورة.. الا انها احضرت معها صورة اخرى له، حملتها بين أطراف اصابعها، وكان الصمت مدوياً حين نظرت الى باقة صور لاشخاص لم يعودوا.. كابنها، غيبهم الانتظار!

■ الحاجة غادة ارناؤوط فقدت ابنها محمد عام ١٩٨٩ حين كان ذاهباً الى بيروت على طريق المطار واختطف هناك ولم يعد له اي اثر، صعدت السلم بعد ان اخبرتنا قصتها ممسكة بيد حفيدتها قائلة بتنهد: «عمره لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين عاماً، كان لا يزال شاباً»، وبيد اخرى أمسكت يد ام تعرفت اليها في لقاءات كثيرة حيث جمعهن الهم نفسه والانتظار المتفائل بأن يعود من فُقد. اصطحبت معها «ام مصطفى» التي لا تزال الحرقة تشعل قلبها لفقدان ابنها مصطفى ابن السادسة عشرة، «لم يكن منتمياً الى اي حزب» تؤكد وهي متحمسة للكلام «لتفش ما في قلبها»، «كانوا يشاهدون (هو واصدقاؤه) لعبة لكرة القدم قبل يومين من عيد الاضحى مثل هذه الايام بين المنتخبين العراقي والسوري في حارة «قبر الزيني» (باب الرمل) تحت المنزل داخل «بوسطة» وحين فاز الفريق العراقي، صفق الشباب فرحين لفوزه، وبعد أيام، وفي أول أيام العيد نزل مصطفى الى الشارع ليعيّد أصدقاءه ولم يعد». قصة مصطفى تشبه قصص الكثيرين ممن فُقدوا وما زال مصيرهم مجهولاً.

في السجون السورية

■ ام (مصطفى الزكزوك) تعرف ان ابنها معتقل في السجون السورية ولديها كثير من الادلة تؤكد ذلك، «شاهده الكثيرون من الذين عادوا واكدوا لي انه في سجن تدمر»، ووصفوه لها: «يحب رقص البرايك دانس وقد اصيب نتيجة حادث سير وهو يافع، أشقر، عيناه خضراوتان». وذلك ما زادها يقيناً بوجوده، اما قلبها فيحدثها انه ما زال موجوداً وهو مسجون هناك».

اجتمع الاهالي قرب بعضهم البعض في صالة عرض الصور (ضمن مشروع «أمم» للتوثيق والابحاث «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمالة الحروب» ومن خلال معرض صور قيد الانشاء» ... ولم يعودوا!»).

في الطابق الاول داخل مبنى الرابطة الثقافية بانتظار افتتاح معرض صور لأعز الناس على قلوبهم، لأبنائهم واخوتهم وأهلهم، أناس من لحمهم ودمهم، فقدوهم (ربما كانوا مقاتلين او ضحايا لا نعلمها، الا انهم فقدوا لمجرد مرورهم في أزمنة القتل والدمار والهروب والتهجير والعنف و«الفلتان» واللااستقرار، وباختصار أثناء الحروب والاجتياح (حرب لبنان الاهلية وأثناء الاجتياح الاسرائيلي) وبعضهم أثناء عهد الوصاية!!

اجتمعوا ليؤانسوا غربتهم في حيرة الاعين وشتات الصور وما بقي عالقاً في الذاكرة وبعضاً من الذكريات، أيام الطفولة والمدرسة واللعب وأثناء الذهاب الى العمل وأيام «الشقاوة» كلها لحظات حاضرة في ذاكرتهم لا تُنسى..

فقدا ولديهما

■ يتكىء الحاج عبد اللطيف الكردي وبجانبه زوجته هيام غربال على حائط الطابق الاول، يسندان ثقل انتظارهما، فهما فقدا شابين من صلبهما، كبرا ولم يشأ القدر ان يجعل الوالدين يروهما كسائر الابناء متزوجين ولديهما عائلة «أيام الاحداث عند حاجز سوري في ١٩٨٣/١٢/١٥ أُختطفا (عند مفرق جبل تربل) وهما الآن معتقلان في سجن سوري، خالد لم يكن يبلغ ١٩ عاماً (مواليد ١٩٦٤) وسالم لم يكن يبلغ ١٧ عاماً ايضاً (١٩٦٦) كما يروي والدهما.

فقد في دمشق

■ دانيال منصوراتي (مواليد ١٩٥٩) أُعتقل في ساحة «العرنوس» في قلب دمشق، أثناء زيارة لعائلته عام ١٩٩٢ على «يد المخابرات الجوية (ابراهيم الحويجي)» كما تذكر والدته ماري، مضيفة «آخر أخباره أتتنا عام ٢٠٠٠ بعد الافراج عن بعض المعتقلين في الاشرفية، واكدوا لنا انه في سجن صيدنايا». العائلة أتت من بيروت لتشارك بالمعرض في طرابلس. في المعرض تتجول حسرة الاهالي وتعاطف الزائرين، فمنهم من يشاهد صور أولاده بجانب المئات من الصور، يأخذه الحال فيشرد عن الواقع وتجده يمسح جفاف الدمع، واي دمع قد يبقى بعد سنوات طويلة من البكاء والحسرة والانتظار.

مسعفان

■ عائدة جدع (من بيروت) تنظر الى صورة زوجها كمال سمعان جدع (مواليد ١٩٣٢) والى صورة ابن أخيه سمعان موسى جدع (مواليد ١٩٦١ وهو أحد مسعفي الصليب الاحمر أثناء الحرب الاهلية) اللذان فُقدا في ١٩ آب ١٩٨٥ أثناء انفجار في كركول الدروز على طريق «قصقص» راحا يخلصان الناس ولم يرجعا، وحتى اليوم لا نعرف عنهما شيئاً». تحكي وعيناها دامعتان وبجانبها ابنتها التي تتساءل عن مصير والدها المفقود.

■ اما ليلى شعيب (بيروت) فقد أتت مع زوجها وأطفالها لتتضامن مع المعتقلين وأهاليهم ولتستذكر صورة أخيها المعلقة بين مئات الصور في المعرض، قصة اعتقاله على يد «السوريين في عين طورة حين لم يكن قد تجاوز ١٧ سنة»، وتؤكد انه «لم يكن منتمياً الى اي حزب او حركة».

صهيب أيوب